الزهد
والآخرة خير وأبقى

يقول ربك عز وجل :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:45]

ويقول حبيبك ﷺ :

" صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل " .

مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني الأوسط

وسأل رجل أمير المؤمنين علياً فقال :

صف لي الدنيا ، فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، وفي متشابهها العتاب .

مكاشفة القلوب صـ 129 الإمام الغزالي

قبل الوصول

حزمت وصاحبي أمتعتنا وركبنا مطايانا ، يحدونا الأمل أن ندرك روضة الزهد قبل أن تغيب الشمس ، ومضينا كل منا يحمل نفسا تواقة ، وروحاً مشتاقة ، وضربنا أكباد الإبل ، والروضة منا على بعد مسافات ، يأتينا عبيرها ، ويداعب وجوهنا نسيمها ، ويتسلل إلى الأرواح عبقها ورحيقها ، فهاج الشوق واشتد العزم وعلت الهمة ، وحتى لا يرهقنا تعب السفر ويقعد بنا نصبه ، قال صاحبي : عظني ، فقلت : أنا وربك إلى الموعظة أفقر منك ، وإلى النصح أحوج من كل ما ذرأ الله تعالى وبرأ ،والوعظ أيها الصاحب الناصح لمن ملك نصابه ، فمن وعظ نفسه فاتعظت فقد ملك النصاب ، وعليه حينها أن يخرج الزكاة ، وإلا فالصمت به أولى ، والسكوت لحاله أليق ، وتأمل معي هذا الخبر ، إنه يضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لكثير منا ، أوحى الله تعالى إلي نبيه وعبده عيسى عليه السلام ، يا عيسى عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى مني ، وأنا أخي الحبيب كما ترى ، لا أملك نصاب الوعظ لأعظ ، فقد والله وعظت نفسي فما اتعظت ، ولم استح من الله تعالى حين رحت أعظ الناس وأنا إلى الوعظ فقير ، وإلى النصح محتاج ، ولم أملك يوما نصابه ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ، قال صاحبي يحاورني : أفلا تحدثني عن الدنيا ونحن مقبلون على روضة أهان أهلها الدنيا حين فرغوا منها هممهم ، وطهروا منها قلوبهم ، وألقوها كالمتاع البالي وراء ظهورهم ؟ قلت : فما سر الحديث الآن ؟ قال صاحبي : إن حديثك يهيئ النفس لما هي مقبلة عليه من منازل عامرة ، ورياض ناضرة ، وقلوب طاهرة ، فحدثني عن الروضة وأهلها لأتعرف على بعض أحوالهم ، وأطلع على شيء من عظيم شئونهم ، فقلت وقد حرك همي للحديث ما زينه من الأدب وشدة حرصه على الطلب : أيها الصاحب الناصح والخل الوفي ، إن الدنيا خداعة ، ضل بزخرفها وزينتها من ضل ، وزل بكيدها ومكرها من زل ، وسقط في وحلها وطينها من سقط ، إنها أيها العزيز رأس الخطيئات ، والإعراض عن متاعها الزائل أم الطاعات ، وأصل القربات ، وأساس المنجيات ، وقد تقلبت نفوسنا على فراش الأماني ، وتمرغت على بساط الشهوات ، ورضعت حتى

الثمالة من رحيق الوهم الزائل والأمل الكاذب ، ولم نعد ندرك أن الأيام إلى ارتحال ، والدهر كله إلى زوال ، والقلب لا يشبع والنفس لا تقنع ، والشيطان لا يفتأ يزين ويوسوس ، والدواء من كل ذلك واحد لا بديل له ولا غنى عنه ، قال صاحبي وقد ازداد حرصه ولج في طلبه : أدركني به ، بل أغثني فقد أوشكت السفينة على الغرق ، قلت : إنه الزهد ، ولا شيء غيره ، شعار الصالحين ، وزينة المؤمنين ، تاج المقربين ، يعبر بهم اللجة ، ويقطع به المفازة ، ويصل بهم إلى مرفأ الأمن والسلامة ، فترتاح القلوب من تعب ، وتسكن الأرواح من قلق ، وتهدأ النفوس من حيرة ، وهنا أشار إلى صاحبي بيده إشارة من وجد شيئا فقده ، أو حقق هدفا طلبه ثم قال : ها قد وصلنا.

نظرت فإذا على الباب بخط واضح ، يقرؤه كل من رآه ، لا يدخل هذه الروضة إلا ذو قلب سليم ، نقي تقى ، خلع لباس الدنيا ومال عنها ، ولبس ثياب الآخرة وأقبل عليها ، فقلت لنفسي أخاطبها : هذا والله حق لا حرج فيه ، وصواب لا غبار عليه ، فهي روضة الزهد . لا يصلح لها ، ولا يليق بها من حرص على موجود ، أو أسف على مفقود ، أو خدع بكلمة مدح أو ثناء ، ولهذا وقفنا بالباب طويلا ، وخضعت قلوبنا لأجهزة حديثة ، للنظر فيها والكشف عليها ، على طريقة إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل[1] .

خضعنا أخي الحبيب لتفتيش طويل ودقيق ، وقد علمنا أنه لا يدخل الروضة من اجتمعت هذه الثلاثة في قلبه ، وقد جمعتها أمامي ، ونظرت فيها ، فإذا هي من وحي القرآن جاءت ، ومن عبير نصحه خرجت ، واقرأ معي قول ربك عز وجل ﴿لِّكَيْلَا

(1) الإحياء . جـ4 صـ 346 .

تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:23] .

فالحجاب الأول أخي الحبيب : الفرح بالموجود ويقابله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ .

والحجاب الثاني أخي الحبيب : الحزن على المفقود يقابله قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾

والحجاب الثالث أخي الحبيب : السرور بالمدح يقابله قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

إن أقل ما يطلب من أهل هذه الروضة وسكانها : ترك الفرح بالموجود ، وطرح الأسى على المفقود وعدم السرور بالمدح ، والمسلم كان كذلك ، فإنه لا شك يواجه الأحداث خيرها وشرها برباطة جأش ، وسكينة نفس ، فلا يجزع عند الضراء جزعاً تطير معه نفسه شعاعا ،ولا يفرح عند السراء فرحا يفقد معه الاتزان والثبات اللائق بالمؤمن ، أما السرور بالمدح فإنه يسوق لا محالة إلى الفخر والعجب ، والعجب يحبط العمل ويبطل السعي ، ويذهب بالأجر ، قال صاحبي وبدا عليه التأثر : اختصر لي الأمر في كلمات يسهل حفظها واستحضارها ، قلت : أبشر ، إن الذي يحجب اليقين **عن القلب ثلاثة أشياء** :

أ – الفرح بالموجود. ب – الحزن على المفقود . جـ – السرور بالمدح .

فأين نحن منها ؟ فنظر إلى صدره ونظرت ، ووضع يده على قلبه ووضعت ، ثم ... فتح الباب فدخلنا .

لم تكد أقدامنا تطأ أرض الروضة حتى فاجأنا أمير المؤمنين وسراج المتقين ، على بن أبي طالب ﷺ بجملة عبقرية جمعت الزهد من أطرافه وسأتركه يحدثك بما جاء عنه في نهج البلاغة ، لتأخذ عنه وتنقل منه دون واسطة ، فيتم النفع وتعم الفائدة ، فحروفه حية وكلماته مشرقة والسر أخي الحبيب في إخلاصه الذي يحمل المعاني إلى النفوس حملا ، ويؤثر في القلوب تأثيرا لا يخفى يقول ﷺ : الزهد

كله بين كلمتين من القرآن : قال سبحانه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:23]ومن لم ييأس – أي يحزن – على الماضي ، ولم يفرح بالآتي ، فقد أخذ الزهد بطرفيه[1] . قال صاحبي يحاورني : كأنه كان معنا على الباب قبل أن نلج ، إنها نفس الآية التى كنا نتجاذب حولها أطراف الحديث ، فقلت : إنها أخي الحبيب آية لا تفنى عجائبها ، ولا تنفد غرائبها ، ولو طهرت قلوبنا ما شبعت منها ، ولو تفتحت لها عقولنا لحارت ودهشت لما تحويه من دقائق ورقائق ، وهل أبقت هذه الآية أي معنى للخير لم تشر له أو تهدى إليه ؟ وهذا ما فقهه الإمام ﷺ ، فأراد ألا نلج الروضة قبل أن يلقننا هذا المعنى الذي يضرب الناس إليه أكباد الإبل شهورا ، ويشدون الرحال في طلبه دهوراً ، فكم أنت حكيم وعظيم يا أبا الحسن ، رعى الله دينا علمك ، ونبيا بوحي السماء هداك وأدبك.

نظر صاحبي إلى شجرة شكلها يسر الناظر ، ويبهج الخاطر ، ويسعد القلب ، لها أربعة فروع ، فقال : ما هذه ؟ قلت : شجرة الزهد ، وتلك الفروع الأربعة أقسامه ، قال : زدني وضوحا ، قلت : أبشر أخي بما يسرك ، وينفعك في دنيا ولا يضرك ، فقد كفاك الإمام ابن القيم رحمه الله هم السؤال وكفاني مؤنة الجواب حين قسم الزهد إلى أربعة أقسام وإليك **أيها الحبيب هذا البيان:**

هذا أول أقسام الزهد وأعلاها ، وهو زهد فرض ، يلزم كل مسلم أقر لله تعالى بالعبودية ، ولشريعته بالحاكمية ، ولقد كان الموت أحب إلى الصالحين من أن يخوضوا فيما حرم الله تعالى ، حتى يطلب أحدهم الموت عند الفتنة ، ويسأل الآخر ربه أن يذهب ببصره ، إذا خشي زيغ البصر أو طغيانه بالنظر إلى ما حرم الله تعالى ، ولا تعجب أخي فهم القوم ليس لهم مثيل ، والرواحل التى

(1) نقلا عن : رسالة المسترشدين صـ 161 . تحقيق الشيخ أبي غدة .

تهدى الأجيال جيلا بعد جيل ، والقناديل التى تضيء في ظلمات البر والبحر ، يقول مالك بن أنس رحمه الله : كان يونس بن يوسف من العباد ، فأقبل ذات يوم وهو رائح من المسجد ، فلقيته امرأة ، فوقع في نفسه منها فقال : اللهم إنك جعلت لي بصري نعمة ، وقد خشيت أن يكون على نقمة ، فاقبضه إليك ، قال : فعمى ، وكان يقوده ابن أخ له ، فإذا استقبل به الاسطوانة ، انشغل الصبي يلعب مع الصبيان ، فإن بدت له حاجة حصبه فأقبل إليه ، فبينما هو ذات ضحوة في المسجد إذ أحس في بطنه بشيء ، فحصب الصبي ، فشغل الصبي مع الصبيان ، حتى خاف الشيخ على نفسه ، فقال : اللهم إنك كنت جعلت لي بصري نعمة ، وخشيت أن يكون نقمة ، فسألتك فقبضته إليك ، وقد خشيت الفضيحة ، فرده إلى ، فانصرف إلى منزله صحيحا يمشى ، قال مالك : فرأيته أعمى ورأيته صحيحاً [1]، يا الله ! إلى هذا المدى كانت السماء تستقبل دعاءهم فتتنزل الإجابة من فورهم ، وكيف لا ، وقد كف القوم عن الحرام جوارحهم وفطموا النفوس عن كل ما يغضب الله فكانت إجابة السماء أقرب لأحدهم من شراك نعله.

الثاني الزهد في الشبهات

وهناك أمور أيها الحبيب يختلط فيها الحلال بالحرام ، ويحار المرء أمامها : إلى أي القسمين تنتمي ؟ فاعلم أيها الحبيب أنه كلما قويت الشبهة في شيء كان الزهد فيه إلى الواجب أقرب ، وكلما ضعفت الشبهة في الشيء كان الزهد فيه إلى الاستحباب أقرب ، وفي الحديث الذي أحفظه وتحفظه ويحفظه القاصي والداني يقول المصطفى ﷺ : " **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه** " [2]

وقد فسر رباني هذه الأمة ، وإمامها في الصبر واليقين ، الإمام أحمد الشبهة بأنها : منزلة بين الحلال والحرام ، وفسرها مرة أخرى بأنها : اختلاط الحلال بالحرام[3]. وقد رويت في هذا الباب عن الصالحين عجائب تقشعر لها الأبدان ، وتضطرب لها القلوب ، وتحار

---

(1) ذم الهوى . صـ 114 . ابن الجوزي.

(2) متفق عليه .

(3) جامع العلوم والحكم . صـ 79 .

لها العقول ، فقد كان على بن الفضيل إماما في اتقاء الشبهة ، ونموذجا يحتذي في ترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن يقع الحرام ، يقول أبوه الإمام الرباني الفضيل بن عياض عنه : كانت لنا شاة بالكوفة أكلت شيئا يسيرا من علف أمير ، فما شرب لها لبنا بعد [1]، وقبل أن يرتد إليك طرفك ، هذا أخ له على الطريق ، ورفيق له في الدرب يكمل الصورة ويزيدها بهاء وتألقا ، إنه الإمام كهمس الذي قال عنه الإمام الذهبي : من كبار الثقات ، وذكره الإمام أحمد مرة فقال : ثقة وزيادة ، أما خبره أخي فقد سقط منه دينار ، ففتش حتى لقيه ، فلم يأخذه ، وقال : لعله غيره[2] ، يا الله ! إنها آفاق عليا ، وسماوات علا ، ومقامات لا يطار إليها على أجنحة ولا تسعى إليها الأقدام ، إنما فقط تطالها قلوب هؤلاء الصالحين ، فسدد أخي وقارب ، وإذا اختلط عليك أمر فدعه ، فإنه أبرأ لدينك وعرضك ، وأيسر عليك في الحساب يوم العرض على الملك الوهاب.

وأريد بالفضول أخي ، فضول كل شيء ، النظر ، الكلام ، والطعام والشراب ، فضول الخلطة مع الناس وغير ذلك مما يزيد عن حاجة الإنسان في كل أمر ، وتلك والله منزلة ليست بالهينة ، ومطلب ليس باليسير ، ومن ثم لا يدركه كثير من الناس فهو زهد خواص الناس ، يحتاج إلى جهد كبير ، وجهاد شاق ، وكف للجوارح وفطام لها عما يزيد عن حاجتها ، ويشرح هذا ويوضحه قول حبيبك ﷺ : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[3] . فهو عام في ترك كل ما زاد عنك وعن حاجتك من الكلام والنظر والاستماع والبطن والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنه ، وسيرة القوم في هذا الباب مضيئة ، وأخبارهم مثيرة ، وآثارهم مشرقة ، يقول داود الطائي : كانوا – بعض السلف – يكرهون فضول النظر ، وكان في دار الإمام مجاهد علية قد بنيت ، فبقى ثلاثين سنة لا يشعر بها[4] ،

---

(1) سير أعلام النبلاء . جـ8 صـ 446 .

(2) نفسه : جـ 6 صـ 317 .

(3) رواه الترمذي وابن ماجة .

(4) التبصرة . جـ 1 صـ 161 . ابن الجوزي.

سبحان الله ! مكان استحدث في بيته ، فبقي لا يقيم إليه بصره ثلاثين سنة ولم يشعر به ، إن إقبالهم على الآخرة شغلهم عن النظر إلى الدنيا وزخرفها ، وصدق توجههم إلى مولاهم ، حول أبصارهم وبصائرهم إليه ، فما كانوا يهتمون بما وراء ذلك ، ولم يكن الأمر أيها الحبيب يتعلق بفضول النظر فقط بل بكل ما فيه فضول حتى وضع ابن عمر أصبعه في أذنيه عندما سمع زمارة راع ، ومال عن الطريق ، ثم قال : يا نافع ، أتسمع ؟ فقال : لا فأخرج أصبعيه من أذنيه وعدل إلى الطريق ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يصنع .[1]

وهي منزلة العارفين أخي الحبيب،أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين،واتسعت صدورهم بأريحية الإيمان ، وحلقت نفوسهم بأجنحة من الزهد والورع فغابوا عما سوى الله عز وجل ، فلا يبصرون إلا بالله ، ولا يتكلمون إلا لله ، ولا يسمعون إلا لله ، ولا يفكرون فيما غير الله ، فهم يعيشون لله وبالله ومع الله ، وهذا الصنف أخي عزيز نادر ، بل مفقود في زماننا غير موجود ، قل أن تقع عين عليه ، أو تهتدي قدم إليه ، إن قلوبهم صفر من كل شيء ، خراب بلقع من الدنيا وزينتها ، عامرة بالله وحده ، وتأمل حال هذه الأسرة المباركة ، وعش معها قليلا ، فتتضح لك الأمور ، وترى كيف كان يعيش القوم ، وكيف كانوا يفكرون ، وما هو السر في ترقيهم في درجات الإيمان ومقامات الإحسان حتى أدركوا قمتها ،ووقفوا فوقها يصلحون الناس ويرشدون الدنيا إلى أمثل الطرق في التعامل مع النفس ومواجهة الدنيا وزخرفها والجهاد مع الشيطان ، فتأمل : دخل الفضيل مرة على ابنته يعودها ، وكانت تعاني من وجع في كفها ، فقال لها : يا بنية ، كيف حال كفك هذه ؟ فقالت : يا أبت قد بسط الله من ثوابها ما لا أؤدي شكره عليه أبدا ، فتعجب من حسن يقينها ، قال : فأنا عندها قاعد إذ أتاني ابن لي عنده ثلاث سنين ، فقبلته وضممته إلى صدري فقالت لي : يا أبت سألتك بالله ، أتحبه ؟ فقلت : أي بنية

(1) أخرجه الإمام أحمد وصححه الشيخ أحمد شاكر.

والله إني لأحبه ، فقالت : وسوأتاه لك من الله يا أبتاه ... إني ظننت أنك لا تحب مع الله غير الله ، فقلت لها : أي بنية ، أفلا تحبون الأولاد ؟ فقالت المحبة للخالق ، والرحمة للأولاد ، فلطم الفضيل رأسه وقال : يا رب هذه ابنتي هيمتنى في حبها وحب أخيها ، وعزتك لا أحببت معك أحدا حتى ألقاك .

أخي الحبيب : أمسك عليك عقلك ، ولملم بقايا فكرك ، واسأل نفسك : إذا كان هذا حال الأولاد فكيف بالآباء الربانيين الذين علموا وأدبوا ؟ أخي الحبيب ، لما تعلق قلب إبراهيم بولده أمره ربه أن يذبحه ، فلما أسلم قلبه لخالقه ، وطرح منه حب المخلوق ، تم الفداء ونزل الذبح العظيم ، فكأنه قيل : يا إبراهيم ، لما رددت إلينا قلبك، رددنا إليك ولدك ، وتذكر دائما أيها الحبيب أن مولاك يغار على قلبك كغيرتك على من تحب بل أشد ، واسمع هذا النداء الأعلى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ثم ..... ثم فتش في قلبك ، واصنع بعدها ما يلزم ، واغرس اليوم فيه ما يسر ، حتى لا تجد يوم العرض ما يضر .

يبدو أن للفضيل رحمه الله تعالى في كل روضة مكانا ، وفي كل منزلة ميدان يعرف باسمه ويشار إليه ، فنحن لا ندخل روضة ولا ننزل منزلا إلا وجدنا له فيها أثرا ، إما طريقا عبده أو بيتا بجهده بناه ، أو شجرة بيده غرسها ، يسكن تحتها السالكون ليمسحوا آلامهم ، ويأوي إليها المتعبون ليداوي جراحهم ، ويقصدها الغرباء ليبحثوا عن هوائها العليل وظلها الوارف ، فرحم الله الفضيل ، لقد وجدناه أمامنا على غير توقع منا ، يهدينا الطريق ، ويرشدنا إليه ، فكان مما قال : جعل الشر كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه : الزهد في الدنيا[1] ، لله درك يا فضيل ، صمت عن اللغو ، فنطقت بالحكمة ، ووقفت جوارحك عند حدود مولاك لم تتخطاها ، رغبا ورهبا ، فجري الحق على لسانك وقلبك ، إن قول أخيك الفضيل هذا ، من أجمع ما قيل في

(1) تنبيه الغافلين . صـ 166 . السمرقندي .

الزهد وأحسنه ، فلو اجتمع الشر كله في بيت وأغلق عليه ، وراح الناس يحاولون الدخول عليه والوصول إليه فلن يجدوا سوى مفتاح واحد هو : حب الدنيا ، وفي المقابل لو جعل الخير كله في بيت واحد ، وتحت سقف واحد وأغلق عليه ، وراح الناس يطلبونه ويحاولون الدخول إليه ، فلن يجدوا إليه سبيلاً ، سوى مفتاح واحد هو : الزهد في الدنيا ، لا تعجب أخي ، فنحن في روضة العجائب ، فمن ذا يقترب منها ؟ ومن يدنو من أسوارها ؟ ومن يقدر على مهرها ؟ إنها روضة الصفوة ، وملتقى النخبة ، وخلاصة الربانيين ، كالفضيل وإخوان الفضيل ، الذي أبي أن يتركنا نغادر بستانه ونفارق ميدانه ، دون أن يتحفنا بأخرى ، فإذا صوته الندى ، ونداؤه العذب الشجي يأتينا قائلا : طالت فكرتي في هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[الكهف:7،8] وإنها والله لتستحق الوقوف ، وما هو أكثر من الوقوف ، وتستحق التأمل ، وما هو فوق التأمل ، وهل أطلت التأمل فيها كما فعل أخوك الفضيل ؟ إن تكن فعلت فأنت على الدرب تسير ، وعلى نفس الخطى تمضى ، فسدد وقارب ، وإن لم تكن فعلت فدعني أقول لي ولك ولأمثالنا من القاعدين : لقد سبقنا القوم ولا طاقة لنا على اللحاق بهم ، ولا قدرة لنا على نزول منازلهم ، حتى نفعل ما فعلوا ، إن الآية التي طالت فكرة الفضيل فيها ، تلخص قصة الحياة ، وتبرز الغاية منها ، والنهاية المحتومة لها ، وأعد معي أيها الحبيب قراءة الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 7] فقد جعل الله تعالى ما على الأرض من زخرف ومتاع وزينة ، جعله اختبارا وابتلاء ، ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته جزاء وفاقا ، وربك أخي الحبيب يعلم ، ولكنه لا يريد أن يحاسب الناس على مجرد علمه بهم ، بل بما يصدر عنهم من إيمان وكفران ، وشكر وجحود ،﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:8]ثم تكون النهاية المحتومة تعود الأرض صفرا من زخرفها ، خرابا من زينتها ، ويصير عاليها سافلها ، وتنتهى قصتها لتبدأ قصة أخرى ، وتلك هي الحكاية التى استوقفت الفضيل ، وطالت فيها فكرته وإنها لجديرة بالوقوف وبطول التأمل ، فرحم الله المرشد الناصح ،

والمعلم النابه ، إمام الربانيين وقدوة الصالحين الفضيل بن عياض.

لم يفضح الدنيا أخي ويكشف زيفها ، مثل القرآن الكريم ، وكيف لا وهو كلام الذي خلقها ويعلم حقيقتها ؟ ولهذا حذر منها ، وأنذر أهلها ، وأوصى بعدم التعلق بها ، والاستسلام لفتنتها ، وحسبك في بيان قيمة الدنيا وحقيقة متاعها هذه الآية فاقرأ أخي وتدبر : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:20] ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ هذه حقيقتها أخي حين توزن بميزان الحق ، وتوضع في المكان اللائق بها ، وسأترك **سيدا** رحمه الله يشرح لك فأنصت ، ويهتف بك فأقبل يقول :

(الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي ، وتوزن بموازينها ، تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة ستبدو شيئا زهيدا تافها ، وهي هنا في هذا التصور تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة ، من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعب الحياة ، لعب ولهو وزينة ، وتفاخر وتكاثر ، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شامل)[1]

وأنت أخي الحبيب كيف تنظر إلى الدنيا ؟

وكيف ترى متاعها وغرورها ؟

وما هو الميزان الذي تزن به ما فيها من لعب ولهو وزينة ؟

أظن أنه قد آن لنا اليوم وليس غدا أن نقود معا حملة واسعة النطاق لنكشف من خلالها حقيقة الدنيا ونفضح بها الزيف والغرور والدجل الذي تصطاد به أهلها وترمي بها شباكها ، تماما كما فعل القرآن ، ولن نستطيع ذلك إلا إذا وضعناها وجها لوجه في مقابلة لن تكون متكافئة بينها وبين الآخرة .

---

(1) الظلال جـ 6. صـ 3491 .

نعم أخي إذا أردت أن تعرف قيمة الدنيا وتفضح زيفها ، فضعها أمام الباقية وجها لوجه ، تتضح الصورة وينقشع الضباب ، ويزول كل وهم ، هكذا فعل ربك أخي لتتأمل وتقارن ثم تختار ، إلى أي جهة يميل قلبك ؟ وإلى أي الدارين تشتاق نفسك ؟ وهل أنت من أبناء الدنيا أم من أبناء الآخرة ؟ وتدبر هذه الآية ، يقول الله عز وجل : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:16،17] ، فقابل أخي العاجلة والآجلة ، وقارن بين الفانية والباقية ، ثم سل نفسك : أيليق بعاقل مثلك أن يقع في هذا الفخ الذي تضعه الساحرة ، والشرك الذي تنصبه الغدارة ؟ يقول سيد رحمه الله : (**إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى ، فمن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثرونها ، وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها ، وتسميتها " الدنيا " لا تجئ مصادفة فهي الواطية الهابطة ، إلى جانب أنها الدانية : العاجلة ، . ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾** [الأعلى:17]... **خير في نوعها ، وأبقى في أمدها ، في ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير ، لا يقدم عليها عاقل بصير**)[1] ، إنه بيان حق وقول فصل ، كله جد ولا يشوبه هزل ، فعالج نفسك أخي لتشفى من التعلق بزائل ، لا يعرف حقيقته إلا من فر من شباكه ، ونظر إليه من عل ، ثم راح يشرح ما رآه ، فأخبر أنه لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة ، هكذا تكلم روح الله وكلمته ، هكذا تكلم عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال في بيان واضح وتوجيه مشفق ناصح : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب المؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد [2] ، هذا كلام العارفين أخي : إن الإناء واحد ، وهو القلب ، والقلب لا يسع إلا حبا واحدا ، إما الرحمن وإما الشيطان ، إما الدنيا وإما الآخرة ، ضرتان لا تلتقيان ، فاحذر أن تأخذ من الأولى سوى ما تقطف ثمرته في الآخرة ، وتحمد يوم اللقاء عاقبته.

---

(1) نفسه . ج6 . صـ 3894 .

(2) مكاشفة القلوب . صـ 122 . الغزالي .

نحن في روضة الزهد أخي ، وأنت ما دخلت معنا إلا بعد طول تفتيش في النفس ، وبحث في زوايا القلب ، فلما اتضح أن القلب سليم ، وأن النفس مستسلمة ، وأن الجوارح قد رفعت أعلامها البيضاء ، ودخلت في السلم كافة ، فتحت لك الأبواب ، وأكرمك أهل الروضة فلم يدع أحدهم وسيلة إلا ذكرها ، ولا دواء إلا وصفه ، ليسلم قلبك وتستريح نفسك من شقاء العاجلة وتعبها ، فتعال معى نسمع ما قالوا، ونرى ما وصفوا.

رحنا نطلب واحدا من أهل الروضة ، يحدثنا عن الدنيا ، وعن خداعها لأهلها ، وعن مكرها بهم ، فلم نجد أعظم فهم لها ، وأكثر يقينا بحقيقتها من قوم صحبوا سيد الخلق ﷺ فرباهم وأدبهم ، وجعل الآخرة همهم ومبلغ علمهم ، وعلق بالباقية قلوبهم ، ففروا سالمين من شباك الدنيا ، وحلقوا ناجين من شراك الشهوات ، فهذا أبو الحسن أمير المؤمنين على رضي الله عنه ، كل سيرته ومسيرته تشير إلى رجل أهان الدنيا ، رجل وقف بقدميه فوق متاعها يرنو بقلبه إلى الآخرة ، وببصره إلى جنة عرضها السموات والأرض ، كل سلوكه كان في هذا الاتجاه ، وروا عنه من المواقف ما يثير الدهشة ويدعو إلى الإعجاب ، فقد خرج يوما إلى السوق وهو خليفة ينادى في الناس قائلا : من يشترى منى ثوبي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشترى بها إزارا ما بعته ، سبحان من خلق هذا الرجل وسواه وألهمه خشيته وتقواه ، وأعطاه القدرة على مواجهة الفقر والصبر عليه ، والدنيا بقبضته ، ومال الأمة كله ملك يمينه ، سبحانك يا رب ، اللهم أعطنا ما أعطيت هذا الرجل وإخوانه من الربانيين ، يقينا يخالط قلوبنا ، وصبرا يملأ نفوسنا ، ويقوى عزائمنا ، حتى نفعل كما فعلوا ، ونعلوا براية الحق ، نرفعها ونرتفع بها ، نحميها ونحتمي بها ، والآن هيا أيها الحبيب ، أعد قراءة الموقف السابق ، ثم قارن حال هذا الرباني بحال ناس يرتعون في الدنيا كالوحوش في البرية ، يلغون في أموال الناس ، ويسمنون من حقوق الرعية ، لا يرجون ثوابا ، ولا يخافون عقابا ، نعم أخي أعد القراءة ،

وما عليك بعدها سوى أن تشكو إلى رب العباد ظلم العبيد إنه فعال لما يريد .

وأعود بك أخي إلى ما هو خير ، إلى سيرة أبي الحسن ، لتسمع وتستمتع ، وتشاهد وتتعلم ، فقد رآه بعضهم ذات يوم ، وقد ركب حماره ، وولى رجليه إلى ناحية واحدة ، ثم جعل يقول : أنا الذي أهنت الدنيا ، اسمع أخي وتأمل ، ونحن نقول لأبي الحسن : نعم ، أنت يا سيدي أهنت الدنيا ، وعرفتها قيمتها ، وفضحت على الملأ حقيقتها ، وأظهرت للناس كل الناس قدرها ، فرفع الله لك يا سيدي قدرك ، وأعلى بين العالمين ذكرك ، ألم يقل فيك رسولك وحبيبك وابن عمك صلوات ربي عليه وسلامه : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1] ؟.

على هذا أخي الحبيب ساله رجل يوما فقال : يا أمير المؤمنين صف لي الدنيا فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، وفي متشابهها العتاب[2] .

لقد لخص لنا أمير المؤمنين الدنيا وزينتها وزخرفها في كلمات ، فصحيحها يمرض ، والمرض ينغص العيش ويذهب بريقه ، ومن أمن مكرها وتقلبها بأهلها وسرعة تحولها ندم ، والندم لا يجدي ولا ينفع ، ولا يعود على صاحبه إلا بعض الشفتين وقضم الأصابع ، وفقيرها أخي الحبيب يحزن وتلك حقيقة ، فالفقر يكسر النفس ويجلب الهم ، ويضعف الهمة ، فالفقر والهم قرينان ، فمن افتقر حزن ، وغنيها لا يسلم ، فهو لا شك مفتون بماله مغرور بملكه ، والفتنة شر كلها ، وفي حلالها يكون السؤال والحساب ، وويل ثم ويل لمن أخطأ الجواب ، فإذا كان هذا شأن الحلال فما بالك أخي بالحرام ؟ إنه والله أجدر بالعقاب وأولى بضرب الرؤوس والرقاب ، بمقامع من حديد وشراب من حميم وغساق وصديد ، يصهر الجلود ويشوي الوجوه والسبب أخي هو الحرام ، أما

---

(1) الحديث صحيح أخرجه الترمذي وابن ماجه .

(2) مكاشفة القلوب . صـ 129 .

المتشابه الذي اختلط فيه الحلال بالحرام ، ففيه العتاب ، وهل لبشر صبر على العتاب من رب الأرباب؟ إن المرء منا يذوب حياء وخجلاً إذا ما عاتبه بشر ، فما بالنا بعتاب رب البشر ؟ وقد خلق فسوى وقدر فهدى ، وأخرج المرعى ، وأجرى السحاب وأنزل الماء وأخرج الزروع والثمار ليطعم الناس كل الناس المؤمن والكافر ، والجاحد والشاكر ، فهل لأحد صبر على عتابه ؟.

لقد أيقن أهل هذه الروضة يقينا لا يخالطه شك ، ولا تشوبه شائبة ، أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ، فلم يخدعهم العيش ، ولم يغررهم الأمل ، وأنا ألتمس منك أخي ، بل استحلفك ، مهما كان عمرك صغيرا كنت أم كبيرا ، شيخا كنت أم شابا ، أن تنظر خلفك ، وأن ترد الطرف إلى ما انقضي من سني حياتك ، ثم تنظر أين ذهبت ، وكيف ولى الشباب بزهرته وبريقه وأقبلت الشيخوخة بذبولها وضعفها ؟ وكيف انقلبت القوة ضعفا والحكمة اضطرابا وخرفا ؟ يا الله ! هذه هي الدنيا وتلك هي حقيقتها ، وقد صورها خالقها فأحسن التصوير عندما قال سبحانه : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:45] هذه أخي قصة الحياة ، بل قصة الخلق ، ماء نزل من السماء واختلط به نبات الأرض ، ثم ... أصبح هشيما تذروه الرياح وانتهى الأمر ، حلم وسنان أو سحابة صيف ، ويا الله ما أسرعها ؟ ولهذا نجد إحساس الناس بالوقت غريبا عند البعث فإذا سئلوا : ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ [المؤمنون:112] يكون جوابهم : ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ ﴾ [المؤمنون:113] وكذلك الدنيا والله كأنها يوم أو بعضه ، هكذا رآها أهل روضتنا فتعاملوا معها بمنظور واضح ، وهو أنه لا خير فيها إلا ما كان بلاغا للآخرة ، وعونا على قطع الطريق وعبور المفازة وبلوغ الأرب ، وهذا هو هم الصالحين وشغلهم ، ومن طريف الأخبار هنا : أن جبريل عليه السلام سأل نوحا عليه السلام قال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان ، دخلت من

أحدهما وخرجت من الآخر[1] . سبحان الله ، يقول هذا وهو أطول الأنبياء عمراً ، فكيف بي وبك ؟ أخي الحبيب إن الأمر جد ، وهو أسرع مما تتصور ، فإياك أن تنسى ، أن يغرك الأمل ، فالنهاية قريبة ، والأجل قادم وهو أقرب لأحدنا من شراك نعله ، ولكن المشكلة أن بريق الدنيا يسبى العقول ، وزخرفها يأسر القلوب ويدع الحليم حيران ، إنها السحر أخي فاحذرها ، واستمع إلى أحد النزلاء الكبار في روضة العظماء ، ممن أهانوا الدنيا ، ووضعوها في مكانها اللائق بها ، فاستمع إليه وهو ينادى عليك ويهتف بك : اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء - يعنى الدنيا – فإذا كان هذا حالها مع العلماء ، فكيف حالها معى ومعك ؟ تعالى أخي نقول لها بلسان فصيح ، وننادي عليها : أيتها السحارة ، ما جئتي به السحر ، وإن الله سيبطله ، به نستعين وعليه وحده نتوكل.

فإذا اجتمع أخي الحبيب إلى عمرها القصير ، متاعها الحقير ، فقد سقطت من نظر كل عاقل ، وقفزت من قلب كل تقي ، وكيف يتعلق بمتاعها قلب ، ومتاعها زائل ؟ وكيف يركض خلف ظلها ذو لب وظلها حائل ؟ إن غاية العاقل فيها لقمة تسد الجوعة ، وشربة تروى الغلة ، وخرقة تستر العورة ، فمن رزق هذا فقد جمع الدنيا بين يديه ، وما زاد على ذلك فهو إما حلال للحساب وإما حرام للعقاب ، وإما مختلط للوم والعتاب ، وصدق الحبيب المصطفى ﷺ حين جمعها في أجمل تعبير وصورها أروع تصوير فقال : من بات آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، وعنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها " ، إنها نعم ثالث لا يدرك شأوها ، ويعلم خطرها إلا ذو عقل سليم وقلب صحيح : الأمن والصحة والقوت ، فماذا بعدها ؟ وماذا يريد المرء وراءها ؟ إن التطلع إلى ما وراء هذه النعم ، نوع من الأشر والبطر والإخلاد إلى الأرض والركون إلى الدنيا لا يليق بعاقل ، فتعال أخي إلى أمير المؤمنين على مرة أخرى ، يقص عليك من أنبائها ،ويأتيك باليقين من أخبارها ، لترى هذا المتاع

(1) مكاشفة القلوب . صـ 122 .

الذي يتهافت الناس عليه ، ما هو أصله ومن أين مصدره ، يقول جابر بن عبد الله الأنصاري ، خرجت مع علي ﷺ إلى خارج المدينة ، فتفكرت في أحوال الدنيا وغرورها وفتنتها لنا ، فقال : يا جابر إن الدنيا أحقر من أن يفتتن بها لبيب ، يا جابر إن لذاتها في **ستة أشياء** :

مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومشموم ومسموع :

فأما المأكول : فألين ما يؤكل العسل وهو رجيع ذبابة.

وأما المشروب : فألذ ما يشرب الماء ، وقد تساوى فيه جميع الحيوانات.

وأما الملبوس : فأفخر ما يلبس الحرير ، ومخرجه من دودة.

وأما المنكوح : فمبال في مبال .

وأما المشموم : فأطيبه المسك وهو دم دابة .

وأما المسموع : فألذ ما يسمع الوتر وهو إثم كله.

فيا مهلكا نفسه التى لا قيمة لها في طلب دنيا لا وضع لها ، أما تراها تبيد بأهلها وسكانها [1] .

إنك أخي لو رحت تبحث عن وصف لمتاع الدنيا ووضاعته فلن تجد أوضح من هذا ، ولو رحت تحقر الدنيا لأهلها ، وتزهدهم فيها وترغبهم عنها ، فلن تقع عينك على مثل هذه الموعظة ، إنها تتركك في النهاية حائرا مندهشا ، حين تفتح عينيك على هذه الحقيقة ، التى تزيل عن القلب سكرة الهوى ، وعن العين سنة النوم والغفلة ، وعن النفس آفة الخلود إلى الأرض والركون إلى الدنيا ، فإذا المرء أمام مشهد مضحك ، ومفارقة عجيبة ، هل هذه هي الدنيا التى تعلقت بها وأرهقت نفسي في السعي خلفها ؟

إنها لا تساوي شيئا ، إذا نظر المرء إليها بالبصيرة لا بالبصر ، وبميزان الحقيقة لا بميزان الهوى ، فانتبه أخي واحذر السحارة ، فإنها غدارة ، واستعن عليها بربك ، يكتب لك النجاة ، ويضمن لك السلامة .

---

(1) المواعظ والمجالس . صـ 34 ابن الجوزي.

وهذه أخي الحبيب ثالثة هي أقوى وأشد فانتبه ، إن كل ما تأخذه هنا من هذا النعيم الزائل ، والمتاع الفاني ، سيتم خصمه هناك من رصيدك الباقي في الآخرة ، ولك أن تتأمل حال قوم يأتون يوم القيامة ، وقد استنفذوا طيباتهم في حياتهم ، فيقال لهم بكل وضوح وصراحة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف:20] ، ويشرح سيد رحمه الله تعالى فيقول : (**فقد كانوا يملكون الطبيات إذن ، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للأخرى منها شيئا ، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساب ، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام ، ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة ، واشتروا تلك اللحظة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله**)[1].

إن من شرب الخمر في الدنيا لن يشربها في الآخرة ، فقد ذهب بحظه من الخمر هنا ، وخسر عند المقارنة بين الخمرين ، ومن لبس الحرير من الرجال هنا ، فلن يراه هناك ، فقد ذهب بحظه من اللباس الناعم هنا وخسر عند المقارنة بين اللباسين ، وكل ما أخذه المرء هنا زائدا عن حاجته من حلال أو من حرام ، فهو بالخصم فانتبه ، ودع للآخرة حظا ، فالآخرة خير وأبقى ، ودعنى أذكر نفسي وإياك بحال من هو أكرم على ربه منى ومنك ، بل ومن الناس أجمعين ، إنه حبيبك الأعلى مقاما والأرفع مكانا ، هل تدرى أنه لم يجد ما يملأ به بطنه غير الدقل – رديء التمر – ثلاثة أيام متتالية ؟ يشبع اليوم فيجوع غدا ، ويشبع يومين فيجوع الثالث ، نعم بأبي هو وأمي ، نعم فداه نفسي وكياني ومالي وولدي ، نعم أخي لم تمر عليه ثلاثة أيام شبعها قط ، فاسأل نفسك أنت : هل جعت لله مرة ؟ وما هي أخر مرة جعت فيها ؟ لعلك لا تذكر ، أو لا تكاد تذكر ، أتدري لماذا ؟ لأننا فعلا نعيش في تخمة ، ونتقلب في سعة ، فلا نكاد نجوع أو نشعر بجائع ، ومع هذا

---

(1) الظلال جـ 6 صـ 3264 .

لا نكاد نكف عن الشكوى ، ولا نتوقف عن السخط ، ولا تكاد تلتقط أذنك كلمة شكر لمن خلق ورزق ، وأطعم وسقى ، وستر وآوى ، فاللهم لا تهلكنا بعذابك ، ونجنا قبل ذلك يا أرحم الراحمين.

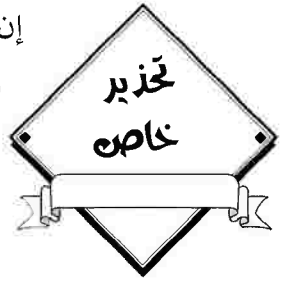

إن الدنيا قد تخدع بعض الناس ، ولكنها لن تخدع كل الناس ، وقد تخدع بعض الناس بعض الوقت ، ولكنها لن تخدعهم كل الوقت ، إذ سرعان ما تظهر الحقائق ، وتتضح الصور ، ويزول الغبن ، فإذا الدنيا عارية من كل زينة ، صفر من كل زخرف ، فارغة من كل معنى ، فيفيق الغافل وينتبه المغرور ، ويستيقظ أصحاب الأوهام ، ولكن أخي الحبيب ، إذا سقط في شراك الدنيا رجل عابر ، فهذا وارد ، بل متوقع ، أما أن يقع في أسرها ، ويسقط في شباكها عالم ، فهذا يحتاج إلى نظر ، إذ العالم الرباني هو الذي يفضح الدنيا ، ولا تفضحه الدنيا ، يفضحها كما فضحها من قبل أبو بكر وعمر كما فضحها عثمان وعلى ، وكما فضحها مالك وأبو حنيفة ، والشافعي وأحمد ، وغيرهم عشرات بل مئات من الربانيين ، نعم أخي ، إن التعلق بالدنيا إذا حدث من عالم تكون المفارقة عجيبة ، والإشكالية عميقة ، وتحتاج إلى وقفة ، بل وقفات ، فليس من يعلم كمن لا يعلم ، وتأمل معي هذا الحوار الذي وقع بين رجلين من رباني هذه الأمة ، مررنا بهما في الروضة ، وأحدهما يسأل والأخر يجيب ، فرعى الله السائل وحفظ المجيب ، سأل مالك بن دينار الحسن البصري فقال : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ، فأجاب الحسن ونحن نسمع : موت القلب ، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ، ويبقى عليه رسمه [1] فيا الله سبحانك ، ما أقسى هذه العقوبة ، وما أشد هذا الجزء ! موت القلب وذهاب بركة العلم ، فماذا يبقى للعالم بعدها ؟

إن للعلماء الربانيين سمتا ليس لغيرهم ، وهو ما يتفردون به ، يبدو في أمور ثلاثة :

أ- حسن الصورة . ب – حسن السيرة. جـ – حسن السريرة .

---

(1) البداية والنهاية . جـ 9 صـ 268 .

فإذا اجتمعت في عالم وسمعت به ، فهو الذي تشد إليه الرحال وتهوى إليه الأفئدة ، وتميل نحوه النفوس ، إنه حقا العالم الذي تضرب إليه أكباد الإبل ، لأنه يعيش لله وبالله ومع الله ، فتولاه الله وكفاه ، ودفع عنه الدنيا وزخرفها ، والشيطان وغوائله ويضع عنه إصره والأغلال ، وهؤلاء أخي كانوا يزينون الوجود ، ويعطرون الدنيا في كل وقت ، لكنهم اليوم قليل لو رحت تطلبهم ، ولا خير في الدنيا إن لم يكن فيها هؤلاء ، ولا معنى للعيش بدونهم ، قال ابن عباس : قال رجل يا رسول الله : من أولياء الله ؟ قال : الذين إذا رؤوا ذكر الله [1] ، والعالم أخي إذا خرجت الدنيا من قلبه وألقاها وراءه ظهريا ، وولى وجهه شطر الآخرة ، وأطلق بصره ناحية الجنة ، وكان من هؤلاء الصنف الذي ما إن تقع عليهم عينك حتى ينطلق لسانك بالتسبيح ، ويخفق قلبك بالتهليل ، وتهتف روحك بالتكبير ، تذكرك رؤيتهم بالله ، فرؤيتهم تنفع ، ومجالسهم ترفع ، والعيش في رحابهم فوز عظيم وفلاح دائم .

إنهم الذين عناهم القائل :

إذا سكن الغدير على صفـاء ... وجنب أن يحركه النسيـــم
بدت فيه السماء بلا امتـــراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك وجوه أرباب التجلي ... يرى في صفوها الله العظيـم

فإذا ظفرت أخي برجل هذا سمته ، فتمسك به ، فإنه حر ، والحر في الدنيا قليل ، وتذكر أننا في زمن العبيد ، إن الواحد من هؤلاء كان قبلة للناس يقصدونه من كل ناحية ، ويأتون إليه من كل صوب ، ليس لغزير علمه فقط ، وإنما لعظيم هديه ، وحسن سلوكه ، وجمال سمته ، وهذا إبراهيم بن أدهم يضع لنا القاعدة الذهبية التى كان السلف يزنون بها الرجال ، ويمحصون بها الأفراد ، يقول رحمه الله : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه ، نظروا إلى صلاته وإلى سمته وإلى هيئته ، ثم يأخذون عنه[2] ، وصدق الرجل ، وما أروعها من قاعدة ، فالعالم ليس وعاء للعلم

---

(1) رواه البزار بسند صحيح .
(2) الآداب الشرعية : جـ 2 صـ 149 .

فقط ، وإنما للعلم والعمل وحسن السمت وجمال الهدي ، ولن تنتفع بعلم أحد حتى ينفعك هديه وسمته ، هكذا كانوا يحكمون ، وإلى الأمور ينظرون ، وهل هدي الرجل إلا ثمرة علمه ؟ ثم يأتي ابن الجوزي رحمه الله شمس الهداية ، وواعظ الدنيا ، ليؤكد لك تلك القاعدة ، لترى وتتعلم ، وتزداد يقينا ، يقول رحمه الله : قد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى هديه وسمته ، لا لاقتباس من علمه ، ذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته[1] ، إن الزهد في الدنيا كسا هؤلاء الناس بهاء ، ومنحهم رضا ملأ أقطار نفوسهم ، ورزقهم عند الناس قبولا ، فإذا الأفئدة تهوى إليهم ، والوجوه تقبل عليهم ، وبهذا وحده تفرد القوم وسبقوا وغردوا خارج السرب ، أما حين تدخل الدنيا قلب الرجل فتملأه ، وتطرق نفسه فتستولي عليها ، فلن يبقى عنده من العلم سوى صورته الظاهرة ، أما الهدى الجميل ، والسمت الحسن ، فسوف يحمل عصاه ويرحل ، ليستقر في قلب طلق الدنيا ثلاثا فبانت منه وانصرف عنها.

فإذا أردت أخي أن تسكن الحكمة قلبك ، وأن تأرز إليه كما تأرز الحية إلى جحرها ، فأخرج الدنيا منه حتى تفسح للحكمة مكانا ، وتأمل هذه الحكمة من أحد الربانيين الذين سكنوا روضتنا واستوطنوها منذ أمد بعيد ، يقول يحي بن معاذ الرازي : الحكمة تهوى من السماء فلا تسكن في قلب **فيه أربع خصال** :

الركون إلى الدنيا وهم غد وحسد أخ وحب شرف [2] ، وآه أخي الحبيب من هذه الخصال ، إنها حين تجتمع في قلب ، **فلن تترك للحكمة مكانا** :

1 – الركون إلى الدنيا ، فإن الإنسان إذا ركن إليها وحط رحاله فيها ، وظن أنها النهاية ، وأيقن أنها الغاية ، نبتت بذور الجهل في قلبه وترعرعت ، وتسلقت جدران نفسه من كل جانب ، فكيف ومن أين تأتيه الحكمة عندها ؟

2 – وهم غد ، وهل يترك لهم في القلب مكانا لفكرة نيرة أو خاطرة مشرقة ؟ وهم غد ،

---

(1) صيد الخاطر صـ 216 .

(2) تنبيه الغافلين . صـ 162 .

إنه هم الرزق ، والرزق بيد مالكه ، وهم الأجل والأجل بيد مانحه ، وهم الولد ، والولد قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وهم الزوجة والزوجة مخلوق لله ، فإذا رضي الله عنك ، أمال قلبها إليك وأتتك وهي طائعة ، فما عليك أخي إلا أن تقبل على ربك ، وأن تعيش له يومك ، يكفيك هم غدك .

3- وحسد أخ ، ولم الحسد ؟ والحسد نار حارقة ، وكارثة ماحقة ، تأكل كل أثر للحكمة ، فتدع القلب منها خرابا بلقعا ، وهل يحسد عاقل ؟ إنما يرتكب خطئية الحسد جاهل يعترض على الله تعالى في خلقه ، إن الله سبحانه يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، فإن منعك وأعطى غيرك ، فلا تقتل نفسك حسدا ، ولا تملأ قبلك حسرات ، وسلم له الأمر ، فإنما منعك ليحميك ، ويذهب عنك ما يطغيك ، وما عليك سوى أن تقترب من الرحاب ، وتطرق الأبواب ، وتسعى جاهدا في تحصيل الأسباب ، والتعرض لنفحات الملك الوهاب ، فعما قريب يأتيك الفرج ويطرق الخير بابك فدع الحسد.

4- وحب شرف ، وحرص المرء على الشرف أخطر على المرء من ذئبين انفردا بقطيع ، وحب الشرف أصله من حب الدنيا ، وحب الدنيا مصدره اتباع الهوى ، يقول وهب بن منبه : من اتباع الهوى : الرغبة في الدنيا ، ومن الرغبة في الدنيا : حب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف : استحلال المحارم.

وهذا كلام حسن وتفصيل جميل ، فتأمله ففيه خير كثير ، إنه يعتب على صاحب المال والشرف : الرغبة في الدنيا ، وإنما تأتي الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى ، لأن اتباع الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها ، والتقوى وحدها تمنع من اتباع الهوى ، وترد عن حب الدنيا ، وحسبك في هذا المقام قول ربك عز وجل : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:37،41] ، ولسيد رحمه الله هنا كلام دقيق ورائع سأدعك معه قليلا ، لتعيش في رحابه وتستمع بخواطره ونفحاته ، يقول رحمه الله : (**ونهى النفس عن الهوى ، هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة ، فالهوى هو الدافع**

القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة ، فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس ، العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دوربها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها ، ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى ، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:41] ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسمى ، إن الإنسان إنسان بهذا النهى وبهذا الجهاد وبهذا الارتفاع وليس إنسانا بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى.

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان ، تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس ، والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني ، وهنالك حرية حيوانية هي هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته وانفلات الزمام من إرادته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية ، مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفا من الحرية.

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى ، تهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى ، أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم ، حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئا توقد به النار التى وقودها الناس - من هذا الصنف - والحجارة).[1]

(1) الظلال جـ 6 صـ 3819 .

لعلك الآن أخي تتفق معي ، أن حب الدنيا والتعلق بها ، هو رأس كل خطيئة ، وأساس كل بلية ، والزهد فيها هو نقطة الانطلاق نحو الجنان ، والركض إلى ما هو خير وأبقى ، فكن من عباد الله ذوي الفطنة الذين طلقوها ثلاثا ، وطردوها بالجملة ، وأقبلوا بقلوبهم على ضرتها ، فهذا أجدر بك وأليق ، لقد قال ربك : ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:17] فصدق وكن من الموقنين ، إن عقل المسلم ودينه لا يكتمل إلا بمعرفة ذلك والإيمان به ، ولكن السؤال هو : كيف الوصول إلى ذلك ودونه من زخرف الدنيا ووساوس الشيطان ورغبة النفس مشقات ومفاوز وعقبات ؟ هذا هو السؤال ، أما جوابه فعند الربانيين الخبر اليقين ، والشرح الوافي لأبعاد الطريق ، لتصل إلى ضيافة القوم سالما ، وتحل بساحتهم آمنا ، وتنزل ديارهم بأمن وسلام ، يقول يحي بن معاذ الرازي : العاقل من عمل ثلاثة أشياء : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبني قبرا قبل أن يدخل فيه وأرضي خالقه قبل أن يلقاه [1].

ويبدو أن ليحي بن معاذ مكانا مرموقا في روضتنا ، فما زالت نفحاته تأتينا من كل جانب ، ونلحق بنا من كل ناحية ، وتلك أخي الحبيب ثلاثة من نفحاته ، تصف الطريق لمن أراد السلوك ، **وتفصل الحدو، لمن طلب جنة الخلو،** :

الأولى : أن تترك الدنيا قبل أن تتركك ، نعم أخي ، فكن عاقلا ، وامتلك أنت زمام المبادرة ، إن الدنيا تولى مدبرة ، فحول وجهك شطر ضرتها فإنها تأتى مقبلة ، وكن ذا لب وصاحب بصيرة ، فهذا هو الظن بك ، وأخرجها قبل أن تطرحك ، وألقها خلف ظهرك قبل أن تلقيك خلف ظهرها ، فإن لها سطوة ، وبها تسلط ، وعندها رغبة ، وكلها غرور

(1) تنبيه الغافلين . صـ 162 .

وكبرياء ، فحطم أخي غرورها وأهن كبرياءها ، كما فعل مسروق بن عبد الرحمن الكوفي – وغيره – فهل أتاك خبره ؟ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، جاء في حلية الأولياء أن مسروق هذا كان يركب كل جمعة بغلته ، ويحمل أحد أصحابه خلفه ، ثم يأتى كناسة بالحبرة القديمة ، ويصعد عليها ببغلته ، ثم يقول : الدنيا تحتنا.

ما رأيك أخي الحبيب ؟ الحق أقول لك ، إنها واحدة من أبدع اللوحات التى مررنا بها في روضة الزهد ، لوحة لا يرسمها إلا هؤلاء ، بريشة اليقين وقلم الإيمان ، وحبر الإخلاص ، وروح الفنان المقبل بجمعيته على الرحمن ، ولكن انتظر، إنها لم تكتمل بعد ، فلا زالت لها بقية ، وإليك التفصيل : يقول عبد الله بن عتبة : بلغنى أن مسروقا أخذ بيد ابن أخ له ، فارتقى به كناسة بالكوفة وقال : ألا أريك الدنيا ؟ هذه هي الدنيا ، أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، وركبوها فأضنوها ، سفكوا فيها دماءهم واستحلوا فيها محارمهم وقطعوا فيها أرحامهم[1] ، فماذا تنتظر أخي ؟ فقد سبقنا والله القوم ، أما نحن ، فلا زلنا في الطريق نصارع الدنيا ، فنصرعها مرة وتصرعنا مرات فقم بنا نفك قيودنا ، ونحطم أغلالنا ، ونفر إلى الله في عزمة ، تزيل عن القلب غبش الدنيا ، وعن النفس غبار الشهوة ، وعن الروح إصرها والأغلال التى رانت عليها.

الثانية : أما الثانية أخي في قول العبد الصالح يحي : وبنى قبرا قبل أن يدخل فيه : فهل تفعل ؟ إننا لن نواجه الدنيا بسلاح أشد عليها ولا أفتك بها من : ذكر الموت ، وأعظم ما في الموت هولا أخي هو القبر ، فهل أتاك خبره وخبر ظلمته ، وخبر وحشته ، وخبر شدته ؟ وهل أتاك نبأ إخوانك الذين نقلوا من أضواء القصور إلى ظلمة القبور ، ومن أنوار المهد إلى ظلام اللحد ، ومن مؤانسة الأهل والولدان إلى مراتع الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في الثرى والتراب ؟ أخي الحبيب بالله عليك ، اسمع هذا الخبر ، وأسلم قلبك

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ96 .

للفكرة ، وعينك للعبرة ، فقد والله بكيت حين وقعت عليه عيني ، يقول البراء : كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بل الثرى ، ثم قال : يا إخواني ، لمثل هذا فأعدوا[1] . نعم أخي لقد بكيت لهذا المشهد ، **لا لسبب واحد بل لأسباب ثلاثة** :

أولها : بكاء حبيبي ﷺ ، فتصوره وهو يبكى ، وتأمل قول البراء : حتى بل الثرى ، بأبي هو وأمي ، ما أغلى دمعته ، وأثمن عبرته.

ثانيها : قسوة قلبى وجمود عينى ، حيث وقفت هذا الموقف مرات ، وشهدت بدل الجنازة جنازات ، فلا خفق قلبي ولا أسعفت عيني ، والسبب لا يخفى ، فإلى الله المشتكي.

ثالثها : قوله ﷺ لمثل هذا فأعدوا ، لقد نظرت فما وجدت لنفسى فضيلة أدخل بها قبري ، ولا شمعة أضيء بها لحدى ، ولا عملا أقدمه بين يدى ليرد غربتى ويؤنس وحشتى ، فخفت واشتهيت ، نعم أخي ، خفت ذنوبي ، واشتهيت رحمة ربي.

فتأهب أخي للقبر ، قبل أن تدخله ، واستعد له قبل أن توضع فيه ، فإنما يأمن فيه غدا من دخله اليوم ، وتأمل حال الصالحين : جاء عن الربيع بن خثيم أنه حفر حفرة في بيته فكان إذا وجد قسوة في قلبه دخل فيها ، وكان يمثل نفسه أنه قد مات وندم ويسأل الرجعة فيقول :"**رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت**" ثم يجيب نفسه : " **قد رجعت يا ربيع ، فيقوم وينشط ، ويظل أياما يرى فيه العبادة والاجتهاد والخوف والوجل** " .

الثالثة : أما الثالثة أخي في كلام العبد الصالح يحيى فهي : وأرضي خالقه قبل أن يلقاه ، ولن ترضى ربك قبل أن يرضى عن ربك ، وأن ترضى بكل ما جاء من ربك ، وكيف لا ترضى عن ربك وأنت تعلم أنه أبر بك من أبيك وأرحم بك من أمك ، وأحني عليك من والدك وولدك والناس أجمعين ؟ كيف لا ترضى عن ربك وأنت

---

(1) رواه ابن ماجة .

موقن أنه أحاط بكل شيء علما ، وهو وحده أعلم بما يصلح للعبد وما لا يصلح له ، إن اختياره لك هو الأصلح وتقديره لك هو الأليق ، وكيف لا ترضى عن ربك وأنت تعلم أنه اللطيف الذي يبتلى عبده بالمصيبة ليطهره من كبيرة واقعها ، أو ذنب دنس به ثوبه ولوث به عرضه ؟ وكيف لا ترضى عن ربك أخي وهو يتودد إليك بالنعم ، ويتقرب إليك بالمنح ، ويعالج نفورك منه وبعدك عنه بعظيم الهبات ، وجليل العطايا ؟ أخي الحبيب ، كيف لا ترضى عن ربك ، ونعمه نعم وابتلاؤه نعم ؟ هكذا فهم سلفك فتأدبوا مع مولاهم في الحالين : إذا منحهم وإذا منعهم ، وأدركوا تمام الإدراك حكمته البالغة في العطاء والمنع ، فامتلأت قلوبهم ببرد الإيمان وسلام اليقين. واستوي عندهم المنح والمنع ، والعطاء والسلب ، حتى قال بعض العارفين : ارض عن الله في كل ما يفعله بك ، فإنه ما منعك إلا ليعطيك ولا ابتلاك إلا ليعافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك إلا ليحيك ، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه[1].

اقرأ أخي هذا الكلام مرة بعد مرة ، واعلم أنك لن ترضى ربك إلا إذا حلقت مع القوم في آفاقهم وطرقت منازلهم بقلبك قبل يدك ، وتعلم ولا تتردد ، قال سفيان الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك ، وأنت غير راض عنه ؟ فقال : استغفر الله ، ثم قال جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضيا عن الله ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة ، فانظر أخي هل نحن كذلك ؟ أنا وأنت وفلان وفلان ؟ إن كلام القوم ينكئ جراحنا ، ويظهر عوارنا ، ويفضح تقصيرنا ، وإلى الله وحده نشكو سوء حالنا ، وقعود جوارحنا ، وعجز أرواحنا ، فادع معي : اللهم رضنا بما اخترته لنا حتى لا تهفو النفوس إلى سواه ، ولا تتطلع القلوب إلا إليه ، ردد هذا الدعاء ، وتعالى معي نطالع وجوه القوم فالنظر إليهم عبادة ، والنظر في أحوالهم بركة وزيادة ، نظر أحدهم إلى قرحة في رجل محمد بن واسع وقال له : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال محمد : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم

(1) مدارج السالكين جـ 2 صـ 225.

تخرج في عيني[1] ، نعم أخي كان يمكن أن تخرج يوم خرجت في عينه ، أليس ظهورها إذن في رجله ليستحق الشكر ؟

بلى والله ، أليس من النعمة أنها كانت واحدة ولم تكن أكثر ؟

بلى والله ، فهل تذكرت ذلك وتدبرته ؟

إنها معان عميقة تحتاج إلى بصيرة ثاقبة وفكر نافذ ، ودعنى أقص عليك في مقام الرضا ما هو أعجب ، كان عند بشير الطبري مزرعة فيها أربعمائة جاموسة – وهي ثروة – فهجم الروم يوما عليها ، وساقوا الجواميس فيها ، وكان عنده مائة عبد يحرسونها ، فأسرع مع ولده إليها ، فلقيه العبيد يبكون – ويصرخون قائلين : يا سيدنا ، يا مولانا ، أخذت الجواميس ، فقال : وأنتم أيضا اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله ، فقال له ابنه : أفقرتنا يا أبتاه ، فقال له : اسكت يا بني إن الله أراد أن يبتلى رضائي به ، فأحببت أن أزيده[2]،رحم الله هذا الرجل ، إن الله أراد أن يختبرني : أأرضى أم أسخط ؟

فكان رده على الاختبار عظيما ، لقد أعتق عبيده زيادة من عنده ليبرهن عن عظيم رضاه بما قضى ربه ، فقال وبكل تسليم : اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله.

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفي اختيار سواه اللوم والشوم

إنها أخي آفاق عالية ، ومقامات غالية ، لا يدركها إلا عاقل ، فضع الدنيا في مكانها الصحيح وأقبل على الآخرة برضا تام وإيمان كامل.

لقد أوتى سليمان من الملك ما قد علمت ، وقد آتاك نبؤه وهو يدعو ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:35] فكان عطاء ربه له واسعا ، وكان فضله عليه عظيما ، يقول تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾

(1) نقلا عن : أصول الوصول . صـ 187 .

(2) نفسه .

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[ص:36،39]

أرأيت أخي هذا الملك العريض والعطاء الواسع والرزق الممدود ؟ ومع هذا كان سليمان أزهد الناس ، وظل هذا الملك في يده ، ولم يتقدم نحو قلبه شبرا واحدا ، فقلبه حصين ، لا يطرقه سوى رب العالمين ، وهذا هو الزهد على التحقيق ، أن تكون الدنيا في اليد لا في القلب ، وتأمل هذا الخبر : روي أن سليمان بن داود مر في موكبه والطير تظلله ، والجن والإنس عن يمنيه وشماله ، قال : فمر بعابد من بنى إسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد أتاك الله ملكا عظيما ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أوتى ابن داود ، فأما ما أوتي ابن داود فإنه يذهب والتسبيحة تبقى، أما أنا فليس عندى من تعليق على هذا المشهد خير وأروع من قوله تعالى : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[الكهف:46] .

إن ملك ابن داود أخي مهما طال فهو قصير ، ومهما عظم وامتد في عين أمثالنا فهو في أعين الصالحين حقير ، إنها الموازين الحق يستخدمها أولو الألباب للحكم على الأشياء ، فيضعون كل شيء في موضعه الصحيح الذي يليق به ، فللدنيا حدودها ، وللآخرة مكانها ومقامها ، ولقد كان الفضيل رحمه الله يستخدم هذه الموازين بعينها ، موازين سليمان عليه السلام ، ليعيش بها ، ويحكم على الأشياء من خلالها ، ولقد كان مما سمعته منه ونحن نتجول في ظلال الروضة قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، فكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى ، على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى ؟ [1] أعد القراءة أخي فالنص في حاجة إلى أن يقرأ أكثر من مرة ، مع التأمل والتدبر ، والنتيجة التى ستصل إليها تقول : إن الآخرة من ذهب يبقى ، وإن الأولى من

(1) نفسه . صـ 127 .

خزف يفنى ، فليتق الله صاحب قلب حي ، وعقل واع ، وليعلق آماله بما يبقى ، لا بما يفنى ، وما أجمل قول المولى ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:96] .

عجيب أمر الدنيا ، تتعب من طلبها ، وتقطع رقبة من سعى وراءها ، وكلما زاد تعلق المرء بها ، كلما زاد دلالها ونفورها ، تلك والله حقيقة ثابتة ، وتجارب واقعة ، فإذا أردت أن تأتيك الدنيا راغبة ، وتخر أمامك راكعة ، فأعرض عنها ، وانظر كل أثر لها في قلبك ، فاغسله بالماء والثلج والبرد ، فإذا نظفت القلب من أدرانها ، وطهرت النفس من كدرها ، وأقبلت على الآخرة بكل ما تملك ، ستبحث هي عنك ، وتأتي إليك ، وسترى عندها ذلها وهوانها ، وانظر هذا المثل الرائع والتصوير البديع ، للعبد الصالح الذي لا يخفى عليك اسمه ، ولا يغيب عنك جهاده ، إنه البطل الشهيد **نور الدين محمود** ، لقد ركب يوما مع بعض أصحابه ، والشمس في ظهورهم ، والظل بين أيديهم لا يدركونه ، ثم رجعوا فصار الظل وراءهم ، ثم ساق نور الدين فرسه سوقا شديدا وظل يتبعه ، فقال لصاحبه : أتدرى ما شبهت هذا الذي نحن فيه ؟

شبهته بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها ، وقد أنشد هذا المعنى **بعضهم فقال** :

مثل الرزق الذي تطلبــه مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلا فإذا وليت عنــه تبعــك[1]

مشهد طريف أخي ، أليس كذلك ؟

مثل الدنيا أخي مثل الظل ، إذا سرت وراءه أتعبك ولا تدركه ، وإذا أعرضت عنه تبعك وسوف يدركك ، وهذه هي الحكاية باختصار ، فكن من الأبرار ، وتعلم من هؤلاء الكبار ، حتى لا تقع في حبائلها فتلهو بك كما تلاعبت بالصغار ، وعبثت بالأغرار.

(1) انظر : الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي جـ 1 صـ 246 .

أطلت عليك في هذا الباب أخي فعذرا ، ولكن عن عمد فعلته ، فإني وإياك في معركة دائمة ومواجهة عنيفة ، وموقعة فاصلة ، مع النفس والهوى والشيطان والدنيا ، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى وضوح الرؤية ، وطول التفكير ودوام التذكير ، فإذا قررت أخي الحبيب ، الفرار إلى الله ، والانحياز إلى الدار الآخرة ، ومن ثم المواجهة الدائمة مع قوى الباطل ، فإن أول شيء يجب عليك أن تفعله هو : أن تحدد صلتك بالدنيا وما فيها من متاع ، وأن توضح حقيقة العلاقة بينك وبين ما تطرحه بين يديك من مغريات ، وما تلقيه في طريقك من عقبات ، فإن التعلق بمتاعها ومغرياتها ، يشغلك عما يجب أن تكون خالصا له ، ورحم الله أبا الطيب المتنبى ، فإن مما تمسك **الذاكرة من شعره** :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

فتأمل أخي قوله : وفضول العيش أشغال ، فإنها والله جملة كافية شافية ، فوطن نفسك على مستوى من العيش يضمن لك ما يكفى ، وينفى عنك الفضول والزيادات ، فهذا أعون لك على الشعور بالغنى التام ، وأجلب شيء لعزة النفس وراحة القلب .

أنت أخي الحبيب صاحب دعوة ، وحامل الرسالة ، وتسير في طريق مشى فيها الصالحون قبلك ، رسموا لك المعالم ، وحددوا لك الأهداف ، وأوضحوا لك الحدود والغايات ، وأرشدوك إلى ما فيه صلاح حالك وسكينة روحك ، ونجاة نفسك ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة الزهد وتقف على مدلوله الذي خاض فيه كثيرون بغير ، علم وخبطوا فيه بدون فقه فعكروا صفاءه وشوشوا نقاءه ، فتعال معى إلى بلبل الدعوة في عصرنا الحديث ، وقيثارتها الربانية ، فضيلة الشيخ محمد الغزالي يشرح لي ولك ، فأنصت معي : (**ونحن لا نحرم حلالا ، ونحجر واسعا ، وإنما نصف الطريق التى لا بد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات ، فإنه لا يتفق طمع في الدنيا وانتصار للمثل العليا ، ولا ينسجمان : الحرص على إعلاء كلمة الله والحرص على تكثير المغانم واسترضاء الخلائق ، وفي الحديث : يا**

أيها الناس : هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى [1].

إن التعلق بأذيال الدنيا والخلود إليها أذل أعناق الرجال ، والتهافت على جمعها أصاب أصحابها بالعمى ، عمى القلوب لا عمى الأبصار ، وتغلغل حبها في القلوب أورث الناس الجبن والانكسار ، والسعي في تحصيلها – من أي وجه كان – أخرس الألسنة عن قول الحق ، وأعمى الأعين عن الآخرة ، وأصم الأذن عن سماع النصيحة ، وحجب عن القلوب نور الإيمان وأجج في النفوس نار الشهوات ، وأمات في الأفئدة الضمائر ، وجفف في القلوب منابع الخير والرحمة والإحسان ، فيا تعاسة عباد الدنيا وقادة الشهوات) [2].

فقصة الزهد إذن تتلخص في أننا لا نحرم حلالا ، ولا نملك ذلك ، ولا نضيق واسعا وهذا لا يجوز ، إنما أصحاب الدعوات لهم أفق أخر يغردون فيه خارج السرب ، ليدلوا غيرهم على الطريق ، ويهدونهم بالفعال قبل المقال ، ويضعون النظريات الربانية موضع التطبيق ، حتى يكونوا نجوما يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر ، أما العوام أخي فلهم شأن آخر ، فلا أحد يتبعهم ، ولا أحد ينظر إليهم ، فلهم أن يأخذوا من الطيبات وأن يستمتعوا بها شرط ألا تصدهم عن الحق وألا تخرجهم عن القصد ، ومن أجمع وأروع ما قيل في الزهد حتى لا تلتبس الأمور ، ما جاء عن الحسن أو غيره : ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها لو لم تصبك ، فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه[3].

إن شيمة أهل هذه الروضة الكرم – فقد غمرونا والله بكرمهم الحاتمي ، فلم يتركونا حتى جمعوا لنا من معاني الزهد ما ملأ نفوسنا رضا ، وأرواحنا يقينا ، وسكب في القلوب رحيق التسليم لقسمة الله والنزول عند قضائه ، بل إنهم أصروا

(1) مسند الإمام أحمد .
(2) الجانب العاطفي في الإسلام . صـ 164 .
(3) مدارج السالكين جـ2 صـ 14 .

على أن يضعوا في أيدينا قبل الرحيل مصابيح ثلاثة نستضيء بها ، كلما نشب الظلام مخالبه في الأرواح وأرخى سدوله **على القلوب فأخذناها فإذا:**

المصباح الأول: اليقين بأن الدنيا ظل زائل ، وخيال زائر ، وبريق خادع ، وسراب عما قليل تظهر حقيقته ، وينفضح زيفه ، فهل تعلم ذلك أخي ؟ أعنى هل تؤمن به ؟ وإلى أى مدى بلغ يقينك بهذه الحقائق ؟ إنها الحطام ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد:20] ، وقد نهى ربك عنها ، وحذر منها ، وسماها " **متاع الغرور** " فانتبه وانظر إلى حقيقة الدنيا ممن خبرها : قال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية[1]، وهذه هي الدنيا.

المصباح الثاني : اليقين بأن وراء هذه الدار دار هي أجل منها قدرا وأعظم منها خطرا ، وأعلى منها مقاما ، وهي الباقية ، فزهد الإنسان في الفانية إنما يكون لتمام الرغبة وكمال الإقبال على ما هو خير وأبقى ، ولعل ذكر الموت وزيارة القبر أخي أنفع دواء لك في هذا الباب فكلاهما يحقق اليقين بالآخرة .

أما ذكر الموت : فإن كتائب الأموات التى نودعها كل يوم ونشيعها ، تقدم لك الدليل المادي على قرب أجلك ، فلماذا تأمن من أن تنضم إلى هؤلاء بين طرفة عين وانتباهتها ، وأن تكون عبرة لمن وراءك كما كانوا عبرة لك ؟ وتأمل حال القوم تنشط ، وانظر في سيرهم تعلو همتك ويزداد يقينك ، فعن إسماعيل بن زكريا وكان جارا لأبي محمد حبيب الفارسى قال : كنت إذا أمسيت سمعت بكاءه وإذا أصبحت سمعت بكاءه ، فأتيت أهله فقلت : ما شأنه يبكى إذا أمسى وإذا أصبح ؟ فقالت لي : يخاف والله إذا أمسى ألا يصبح وإذا أصبح ألا يمسى [1]. ولم يكن

---

(1) قصر الأمل . صـ 59 . ابن أبي الدنيا . دار ابن حزم .

البكاء وحده هو وسيلته ليغرس اليقين بالآخرة في القلوب ، بل كانت له وسائل أخرى منها : أنه كان كل صباح يوصى امرأته قائلا : إذا مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ، وافعلي كذا وكذا ، واصنعي كذا ، فقيل لامرأته : أرأى رؤيا ؟ قالت : هذا يقوله كل يوم[1] .

أما زيارة القبر أخي فهي تجعلك في حضور واستحضار دائم لأجواء الآخرة ، ويتعلق قلبك للدار التى تتهيأ لاستقبالك ، وتستعد لنزولك ، فزر القبر فلعل الزيارة أخي تحملك على أن تقدم لنفسك عملا ينفعك ، وحتى لا تكون الطيور أذكى منك ، كما أخبر ابن الجوزى رحمه الله قال : هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت ، أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر ؟ فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:44] .

المصباح الثالث : اليقين التام بأن الزهد في الدنيا لن يمنعك شيئا كتبه الله تعالى لك ، وأن حرصك عليها لن يجلب لك ما لم يكتب لك ، إذا أدركت هذا وبلغ إيمانك به درجة اليقين ، فستصغر الدنيا في عينيك وتصير أقل معنى ، وتتقلص مساحتها في قلبك لتفسح للآخرة مكانا هي أجدر به وأولى ، أخي الحبيب إن ربك ربط الرزق بالخلق فقال : ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم:40] فأكد أن الرزق من الخالق لا من الخلق ، ثم وعدك فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:58]، ثم ضمن لك الرزق فقال : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] ، ثم لم يكتف بذلك أخي حتى أقسم : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]، فإياك أن تغفل عن هذا ، فيقتلك

---

(1) نفسه صـ 60 .

الحرص ، ويقعد بك الهم ، وتضرب خيامها حولك الحسرة ، ثم لا يأتيك فيها إلا ما كتب لك ، **وثق في الرزق ثقة هؤلاء :**

كان علي بن أبي طالب يقول : إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا : ليس في الدنيا دقيق .

وشكا رجل إلى إبراهيم ابن أدهم كثرة عياله فأجابه بموعظة صاعقة :

انظر كل من في بيتك ليس على الله رزقه فحوله إلى منزلي.

وإلى كل شاك في رزقه يقول ميمون بن مهران : يقول أحدهم : اجلس في بيتك وأغلق عليك بابك ، وانظر هل يأتيك رزقك ؟ نعم والله لو كان له يقين مريم وإبراهيم عليهما السلام وأغلق بابه وأرخى ستره[1].

أخي الحبيب ، لا تشغل نفسك بالرزق فقد ضمن لك ، وانشغل بالطاعة فقد فرضت عليك ، وخذها ربانية من فم ابن عطاء الله : اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك ، فتأملها أخي فإن فيها الخير وأنت لكل خير أهل ، ولست أزكيك فإن ربك أعلم بمن أتقى.

وقبل الرحيل خطر لنا أن نمر على مدرسة الحسن البصري ، فما ينبغي لأحد زار الروضة أن يتركها دون أن يحل بها ، فأتينا فإذا هو جالس ، بهديه المعروف وسكينته الجارفة ، وهيبته الآخذة ، فقلت : يا إمام ، إنك جئت إلى الوجود بسمت السلف الأول ، ولك في الروضة مدرسة باسمك ، فهلا أخبرتنا بحال من سبق ؟ وشرحت لنا من هديهم طرفا ؟ فأشرق وجهه وتكلم ، فكأنما نبي يتكلم ، وكان مما قال : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطو له ثوب ، أو ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإن كان

(1) انظر : البحث عن اليقين صـ 87 . خالد أبو شادي .

الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه[1] . وسكت الرجل ، ونظر إلينا ، فإذا العيون قد فاضت ، والوجوه قد استقبلت أمواجا من الدمع فاغتسلت بها ، وإذا الأرواح تحن إلى عهد القوم حنين الطيور لأوكارها ، فقلت : رحمك الله يا حسن البصرة بل يا حسن الدنيا ، لقد كان كلامك يشبه كلام الأنبياء وصدق من قال ذلك ، فقد جددت الحزن وأججت الشوق ، وهيجت الذكرى ، فلله درك ، طال شوقنا إلى رجل مثلك ، يعلمنا كيف نطرح عن أنفسنا ثقلة الأرض ، وننفض عن أرواحنا حمأ الطين المسنون.

قال صاحبي يحاورني : أتينا مدرسة الحسن ، أفلا نأتى مدرسة سلمان ؟ إني أراها قريبة ، قلت : أحسنت إنه العبد الصالح ، سلمان الفارسي ، صاحب رسول الله ﷺ وأحد الكبار الذين سكنوا الروضة وفتحوا لهم فيها مدرسة ، تعلم اليقين ، وتشرح الزهد ، وتربى أبناءها على التخفف من أثقال الأرض ، فتعال أحكى لك من أخباره عجبا ، لما أتاه ملك الموت بكى ، بأبي أفديه وأمي ، قالوا : ما يبكيك ؟ قال : عهد إلينا رسول الله ﷺ عهدا وما أراني إلا تجاوزته ، قالوا : وما عهد إليكم ؟ قال : عهد إلينا أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، فلما مات حسبوا تركته ، فوجدوا عنده ستة عشر درهما ، هذا ما وجدوه عنده ، ثم هو يبكى ، سبحان الله ، يخشى أن يكون جاوز عهد نبيه ، يخاف أن يكون قد خاض بيديه ورجليه في وحل الدنيا ، وركن إلى باطلها ، رحم الله سلمان ، ورضي عنه ، فكيف به لو رأي الناس اليوم يتركون المليارات والأرض والعقارات ؟ كيف بك يا سلمان لو رأيت هؤلاء ؟ أترانا قد بدلنا ؟ أترانا قد نقضنا العهد ، وتجنبنا الطريق ؟ بالله يا سلمان رفقا بنا ،

---

(1) الإحياء جـ 4 صـ 346 .

فإن نفوسنا تغيرت ، وقلوبنا تغيرت وثوابتنا تغيرت ، وإلى الله نشكو ضعف الحال ، وقلة الصبر ، وجفاف اليقين.

قلت لصاحبي لا تعجب ، فالشيء معدنه لا يستغرب ، وأنت تعلم أن سلمان والحسن وعلى ومصعب ، وغيرهم ، تلاميذ في مدرسة عرضت على مؤسسها الدنيا فلم يلتفت إليها ، وأتته الدنيا راغمة فأعرض عنها ، إنها مدرسة الحبيب ﷺ ودعني أذكرك بمشهد واحد من حياته ﷺ ، يشير إلى ما وراءه ، فليس في الوقت متسع ، وقد أوشكنا على الرحيل ، تقول أمنا عائشة : دخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ ، عباءة مثنية ، فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : ما هذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية ، دخلت على فرأت فراشك ، فبعثت إلى بهذا ، فقال : رديه ، فلم أرده ، وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : يا عائشة رديه ، والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة[1] .

انظر أخي : الذهب والفضة لو أراد ، ولكن لم ؟ والأمر أعجل والعمر أقصر ، والحياة أهون من أن يركن إليها لبيب أو عاقل ؟ قلت لصاحبي : سلمان تلميذ هذا الأستاذ ، وخريج هذه المدرسة ، فإذا سمعت عن سلمان وأصحاب سلمان شيئا فلا تتعجب ، فإنهم تلاميذ هذه المدرسة وأصحاب هذا الإمام صلوات ربي وسلامه عليه.

وقفنا بالباب ، ننتظر الإذن بالمغادرة ، والقلوب لا زالت معلقة بالروضة وأهلها ، والعقول لا زالت تسرح في طرقاتها وتسبح في أنهارها ، فإذا محمد بن واسع يدركنا بزهرة أراد أن نحملها معنا ، فمد صاحبي يده فأخذها فإذا فيها : قال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى : قال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : كيف هذا ؟ قال : ازهد في الدنيا ، قرأنا الخبر فسبحنا

(1) صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وكبرنا ، هذا هو طريق الملك : الزهد ، فكن ملكا في الدارين وأرح نفسك ، ثم فتح لنا الباب فخرجنا ، وعلى بعد خطوات من الباب أتانا صوت **الإمام الشافعي ينشد** :

إن لله عبادا فطنـــــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحـــي وطنــا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنـا

قال صاحبي : إلى أين ؟ قلت : انطلق وعما قليل سوف تعلم ، فانطلقنا .